

القصة الأولى

الدوامة

شادى هو الابن الأكبر وسط اسرة من خمسة أفراد سافر والدته بحثا عن لقمة العيش الى أحد الدول العربية ولم يبلغ من العمر ست سنوات ومن المفترض ان يرتدى ثوب الرجال منذ هذه اللحظة التى قرر فيها الوالد السفر بحكم العادات والتقاليد التى تجعل من الابن البكر هو رجل البيت فى غياب الأب ومنذ بداية المرحلة الابتدائية فرض على نفسه حياة الجدية وعدم اللعب مع الأقران وهو يظن فى مخيلته ان اللعب معهم وصمة عار تدنس الثياب التى أرتدائها وكان يقوم بإحضار الطلبات من الأسواق التى تحتاجها والدته فهو فى بيئة من النادر ان تخرج فيها النساء لشراء الأغراض وكان يشاطر أهالى القرية فى مناسباتهم سواء التهنة فى الافراح أو الوقوف فى مجالس العزاء وعلى الجانب الآخر والدته تقوم بالاشراف وتربية أشقائه الأصغر منه سنا دون كلل أو تمرد على الواقع

والجميع يرى فى شادي مواقف رجولية تفوق أقرانه فقد كان حريصا على أثبات الوجود فى المحيط الاجتماعي وكذلك حريصا على التعلم والأجتهد فى المدرسة وكان يشار له بالبنان فى المرحلة الابتدائية والأعدادية وكان الأب يأتي فى أجازات قليله كل عامين ويمكث بضع شهور ويرى فى شادي المثال للرجولة المبكرة ويستشير فى الكبيرة والصغيرة ويغرس فيه كل إجازة معاني الثوب الذى يرتديه وتمر الأيام رويدا رويدا وكأن عقارب الزمن تخالف

المألوف حتى ظهرت النتيجة الأعدادية وكان شادي من الطلبة المتميزين وبدأ الالتحاق بالمدرسة الثانوية التي تبعد كيلومترات عن منزله وقام بتوريث ذات الدور لشقيقه التالي حتى يتفرغ للدراسة فالمعروف ان الثانوية العامة كانت كالوحش الكاسر ومصدر الرعب لكل الطلبة وقرر شادي ترك المنزل والسكن في المدينة.

وحياة السكن في المدينة فرضت عليه تعلم فنون الطبخ والتحصيل الدراسي وكان يذهب الى منزلة في نهاية كل أسبوع وتظهر بنت الجيران الفتاة الطيبة التي لم تنل حظها من الحياة كونها بين اسرة كبيرة في العدد وتأتى بين الفينة والأخرى لتساعد الأم في الأمور المنزلية.

شادي كان يراها دوما تساعد أمه عندما يأتي في الأجازات الأسبوعية وفي قرارة نفسه يكن لها الشكر والتقدير مع حراك لمشاعر عاطفية نحو الفتاة بحكم مرحلة المراهقة وفي منتصف العام الدراسي تخبره والدته بان هناك شخص تقدم لخطبة الفتاة وهنا كانت النقطة الفارقة في حياته فقد أصبح بين فكي الرchy إما ان يدعها تذهب الى الخطيب او تبقى مع والدته لتساعدوا تحت ستار الارتباط الشرعي وما كان منه إلا التفكير بعقلية الرجال وأبلغ والدته برغبة المجنونة في الارتباط ورقصت الأم طرباً لسماع الخبر المثلج لصدرها وعلى الفور تواصلت الام مع الاب المغترب بحثاً عن لقمة العيش الذي إستشاط غضباً عند سماعه لهذا الخبر. كونه يعلم أنه لا يوجد توافق فكري بين الأبـن والخطيبة لفوارق كثيره أهمها التعليم وعلى الفور أتصل بابنه شادي عبر الهاتف ودار بينهما هذه الكلمات....

الاب - السلام عليكم

الإبن - وعليك السلام ورحمة الله وبركاته

الأب - ما هذا الذى سمعته من والدتك عن رغبتك فى خطبتك من....
هل جُنت .. الأ تعلم أنها غير متعلمة وغدا ستلتقى بفتيات الجامعة ..
الأبن - نعم أبى ما قالتة والدتى صحيح ولكنى اخترت زوجه ستكون
تحت أقدامكم ولن أستقل بها فى منزل بعيداً عنكم.
الأب - أنا برئ من أختيارك وستندم والأمر لك .

يعود الأب فى اجازته وتتم إجراءات الخطبة وسط فرحة الأهل
وعقلية المراهق مرتدى ثوب الرجولة
تدور عجلة الزمن ويذهب شادى الى الجامعة ويقابل الفتيات الرائعات
المتحضرات ذواتى العقول والثقافة ويسترجع ما قاله والدته ويقول يا
ليتنى لم أفكر بعقلانية ومرت سنوات الدراسة الأربع وتحصل شادي
على شهادته الجامعية و تكثر الأقاويل فى القرية حول شادي حول
أمكانية ترك بنت الجيران بعد ان تخرج من الجامعة وقابل الكثير من
الفتيات ويتحدث أهل الخطيبة معه بهذا الشأن ، وضرورة إتمام
مراسم الزواج

ويقف شادى موقفا رجوليا كعادته ويظهر فى الصورة معلناً
حفاظة على الوعد الذى قطعة على نفسه بالارتباط رغم قناعة
الداخلية بأن المجهول الغيبي ربما له رأي آخر وحديث النفس يطلب
منه عدم التسرع فى هذا الوعد ويتم الزواج وما كان يخشاه بعد
دخوله الى الجامعة ومخالطة الأخريات يحدث أمام عينه ليل نهار
وشتان بين من يري نفسه كبيراً على شريك حياته ومن يرى انهما
متساويان فى العقل والتفكير والقدره على وجود حوار وقواسم
مشتركة وأصبح شادي ينتظر كل يوم شروق الشمس لتسطر شهادة
وفاة لشادى الإنسان والسبب وعد الرجال.

بعد الزفاف بأربعة أشهر وصلت تأشيرة المرور للأحلام الوردية التي يحلم بها خريج الجامعة للخروج من رحم الظروف والمجتمع بعد مخاض من حمل أستمروا سنوات وسنوات وأخذ شادي يلملم أوراق الحلم الوردية هنا شهادة الجامعة وهذه شهادة الميلاد وهذه شهادة الزواج وهذا جواز السفر و و الكثير من الأوراق وضعها في حقيبة جلدية صغيرة تكاد تنفجر من همهمات الحروف الأبجدية المكتوبة فيها وذهب الي الجهات الحكومية لاستخراج تصاريح السفر ودفع الضرائب على مرتب لم يتقاضاه بعد وتفاجئ شادي بعدد المراجعين وكأن الخروج منها هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الأحلام ووسط هذا الزحام وبعد عناء شديد يظهر الأستاذ محمود خمسيني العمر خلف شباك واضعا نظارته السوداء قعر الفئان كما يطلق عليها وكرشه المنتفخ يكاد يضرب سيقان المراجعين من تلك الأموال التي تلقي في أدرج مكتبة لسرعة أنجاز المعاملات وصاح بصوته الجمهور كله يقف في الطابور يوم ما لهوش شمس النهارده . صمت الجميع والتزموا بالدور حرصا على الخلاص والانتهاء من الحصول على الأذن بالسفر والذهاب إلى أحلامهم الوردية ولسان حالهم يقول ما هي إلا خطوات للخروج من تلك الأشكال التي تمارس دور النظام وهي أول من يضرب بالنظام عرض الحائط عندما يحتسون الشاي بنكهة الياسمين وانتهى شادي من تقديم الأوراق المطلوبة وأنتظر ساعات حتي صدر الأذن بعد التدقيق عليه في سجل العشاق للوطن وتبين أنه عاشق ذو سجل نظيف وذهب إلى منزلة وهو منهك القوى قوي العزيمة ، نظرة الأمل تعانق نبضاته ومع كل خفقة من خفقات صدره يشعر بالقرب من الخروج من عباءة الوعود التي قطعها على نفسه رغم قسوتها وورقة الوعد بين حقيبته الجلدية المتخمة وبادرته زوجته بالابتسام وتكاد الفرحة تطير من عيناها فقد تحرك

في أحسانها نبض الجنين للمرة الأولى وقالت له هل انتهيت من الأوراق قال لها نعم لقد أنتهيت منها قالت سبحان الملك وكأن الجنين علم بالخبر قبل وصولك فقد شعرت به للمرة الأولى قال لها مبتسما هنيئا لك سيكون أنيسك في سفرى وتغيرت ملامحها للبكاء وتساقطت دموعها الحائرة بين الفرح والفراق وربت شادي علي كتفها ومسح الدموع من علي وجنتيها وقال لها أن السفر ترتيب رب العالمين وأنتى تعلمين أنها أدوار نتوارثها جيل بعد جيل لظروف الحياة الأقتصادية الكافرة والرغبة فى الشعور بالكينونة . طلب شادى من زوجته تجهيز الطعام وأبلغها بأنه في الغد سيقوم بتوديع الأهل والأصدقاء وبعد الغد سيكون السفر فقد حجز تذكرة السفر بعد الحصول على أذن السفر فقامت زوجته من جلستها واتجهت للمطبخ وقامت بأعداد الطعام وكالعادة اللحوم والدواجن وكل ما لذ وطاب على سفرة المفارقين وكأنهم ذاهبون الي بلاد لا طعام فيها . شادي في قرارة نفسه ربما سعادته بالتأشيرة لها أبعاد كثيرة فقد كانت مختلفه ولا يراها الآخرين كما يشعر بها فهو خارج من عبادة الحرام بعدم القيام بأعمال تكون طريقه إلى جهنم فعند الاحتياج لا اختيار بين مصدر الدخل الحرام والحلال ، وخارج من عبادة الحلال الحرام وهو الارتباط المقدس الذي غلل نفسه بقيودة وسلسلة بسبب الوعود التى قطعها على نفسه بالزواج واكتشف بعد القيود بأنها كانت سجن ورماد تحت النيران جاهزه للخروج مع نسمات الهواء ورياح المواقف فكان قرار السفر فرصة للهروب من واقع مفروض لواقع اختياري ربما فيه من المميزات أكثر بكثير من الواقع الافتراضي وجميع تلك الحسابات لم ينطق بها لسانه حرصا على مشاعر المحيطين به فقد كان صاحب القرار فى الاختيار وعليه تحمل العقبات والآثار .

تناول شادي وجبة الطعام وجلس مع زوجته وأهله وتسامروا في الكثير من الأمور وطول تلك الفترة الزمنية يلقي نظرات مسروقة على زوجته التي كانت تراقبه وكأن لسان حالها يقول هل هذه البداية أم النهاية وماذا سيكون حاله عند رؤية الشعوب الأخرى وفتياتها التي كانت تشاهدهم في جهاز التلفزيون وكانت ترتعد عند رؤيتهم لمعرفتها بالفوارق والمنح الربانية لهم ومعرفتها أيضا بأن شادي رغم أنه حريص على مشاعرها لكنه لا عزيز لديه وقد يرتبط بأخرى والدموع تترقق في عيونها واستمر الحال حتى الصباح وقال لها شادي لا تبكي فأنني لست بكبيرة الرجال ولن أظلمك مهما كانت الأسباب فالخوف من الله قرين الشريان وقالت له إنني أحبك وأخشى عليك فقال لها دعى الخوف وتبادلا العناق وكانت دموعها تسري على خدوده كسلاسل البراكين والنيران المحرقة وأستغرب من عجزها عن البوح طيلة الشعور الماضية . في الصباح ذهب شادي لزيارة الأهل والأصدقاء هنا وهناك ويلقي عليهم سلام الوداع وكأنه مفارق ولن يعود فهو في حالة مخاض ما قبل الولادة وظل طيلة اليوم هنا وهناك يداعب هذا ويواسي ذاك ورجع إلى المنزل وتناول وجبة الطعام وطلب من زوجته تجهيز حقيبة السفر فطائرة موعدها الصباح وبينما يبلغها بذلك هلت جموع المودعين المنزل وجميعهم أتى للسلام عليه لجعله يشعر بأن الجميع بحبك وينتظر عودتك والبعض منهم يقول هنيئا لك ستكون أنسان وسيتحسن وضعك وأياك أن تنسانا . والساعات تمر بسرعة البرق ولم ينام شادي ولا زوجته طيلة الليل فقد كانت الدموع العنوان بالنسبة للزوجة والرغبة في أحشاء شادي من المجهول وماذا يخبئ القدر هما أهم العناوين الرئيسية لتلك الليلة ومع أذان الفجر ارتفع صوت سيارة قادمة للمنزل لكي يستقلها شادي إلى المطار وكانت لحظة الوداع مؤلمة للجميع بما فيهم شادي رغم أن داخله سعيد وانطلقت السيارة بسائق

لا يعرف للوراء طريقا ومعه شادي الذى ألقى نظرة عابرة علي المكان وتنهذ بإرتياح وداعا يا دار وأهلا بدرب الخلاص . وصلت السيارة إلى المطار وأنهى شادى ختم الخروج ولاحت فى الأفق طائرة عظيمة الشكل أجنحتها البيضاء كطائر ابو القردان صديق زراعته وطفولته وشعر براحة ورهبة لا تصفها قواميس ومعاجم إلا من جربها وأستقل شادي هذه الطائرة وجلس فى مقعده الوثير الناعم أنتظارا للحظة الانطلاق وبداخله شعور الطائر الحبيس الذي خرج من القفص.

الطائر الحبيس فى صدر شادى يتحرك مع هدير محرك الطائرة الأبيض مع بداية الأقلاع وتظهر مجموعة من الأنوار غريبة فى محيط الطائرة ومع حركة عجلات الطائرة على مدرج الطائرة مشاعر أنسانية لا يعلمها إلا من عاشها ففيها الخوف والرعب من لحظة الخروج من الجاذبية الرضية الى فوق الغمام ومعانقة السحاب ويظهر صوت رخيم فى السماعات الداخلية للطائرة ما أجمله – السيدات والسادة كابتن محمود الشريف يرحب بكم على متن الخطوط الجوية المصرية فى الرحلة رقم 977 المتجهة من القاهرة الى أبوظبي وسنكون على ارتفاع خمسين الف قدم يرجي من الساده الركاب ربط الأحزمة وأغلاق الهواتف والأمتناع عن التدخين وسيقوم مضيفي الطائرة بإرشادكم لأجراءات السلامة فى الطائرة من نوع إيرباص بوينج 777.

ينتهي الصوت ومع انتهانة تتزايد ضربات القلب وتظهر فتيات حسناوات يرتدين زي موحد وعلامات الجمال والسحر تنطق صارخة بمعنى المضيفات ومقدمات الخدمة على الطائرات ويشرحن للركاب كيفية التنفس عند الطواري ومخارج الطواري وسترة النجاه وشادي

بداخلة يضحك ساخرا استر يا الله هل الهروب من القفص الذهبي والتمرد على الواقع سيكون نهايته فوق الغمام والبحث عن وسيلة نجاه وهمس الى الشخص المجاور له لتعليمه كيفية ربط حزام الطائرة فهو لم يركب طائرة من قبل ويرشده الشخص المجاور وتحرك الطائرة وتزداد سرعة عجلاتها على المدرج وفجأة تسحب الروح وتكاد تصل الى الحلقوم فقد بدأت الطائرة فى الصعود ويمسك شادي بالكروسي الجالس عليه وهو يردد سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا مقرنين اللهم انت الخليفة فى السفر الى اخر الدعاء المأثور عن النبي الكريم صل الله عليه وسلم ولحظات الرعب تعانق شرايينه واوردهه والطائرة ترتفع وترتفع وترتفع ومع ارتفاعها يزداد الشعور بالرهبة حتى تستقر الطائرة على ارتفاعها المحدد لها حسب خطوط السير والملاحة الجوية.

تمر الساعات ويستعد كابتن الطائرة للهبوط فى أرض ستحمل شهاده ميلاد جديده لشادي بعد ان كانت شهادة وفاة مع كل يوم تشرق فيه الشمس.

والهبوط يفوق الصعود فى الخوف والرهبة فمجرد خطأ بسيط يعنى اللاعودة الى عالم الحياة وتهبط الطائرة ويمشي شادي خلف الراكبين فالتجربة الاولى دوما مرعبة ويسير رويدا رويدا خلفهم حتى ينهي اجراءات الدخول الى الدولة المضيفة ويظهر من الخارج حائل زجاجي يري من خلاله والدة الذى كان منتظره مع الكثير من الأصدقاء المجاملين للوالد وكأنه سيخرج من الحائل فى موكب رسمي للزعماء والقاده والملهمين ومن جانب اخر ربما يكون موكب جنائزي بعد بضعة سنوات فالمجهول دوما يجعل الأنسان يضع العديد من الفرضيات والأحتمالات.

خرج شادي من باب اللوح الزجاجي وإذا بلفحة هواء ساخن او كما يقال أقرب ما تكون الى فحيح جهنم وشدة الحرارة ظهرت اثارها على الأرض حتي تشكلت ظاهرة السراب ولا يوجد طائر يتحرك والمنظر العام بأنه أجواء حفلة شواء سمع عنها كثيرا شادي قبل رؤيتها رؤيا العين لكن حرارة وحفاوة الاستقبال من والده ومن اصدقاء والده والمجاملين الذين حضروا لأستقبال شادي جعلته يفقد الشعور تدريجيا بحرارة الطقس فقد أحتضنه الجميع وتبادلوا معه العناق وكل شخص فيهم يري انه من ريحة الحبايب واهل الوطن وجميعهم يرغب في معرفة اخبار اهاليهم واسرهم واطفالهم والاحوال الاقتصادية والاجتماعية ومن فارق الحياه ومن مازال على قيد الحياة وجميع تلك الأخبار سيكون المتحدث الرسمي بها شادي .

ومع هذا التصور كان شادي في عالم آخر فقد رأي بام عينة ما لم يكن يخطر له على بال ولا يكاد يصدقه وربما لم يشاهده في التلفزيون فالجمال عنوان المباني والأبراج الشاهقة والمركبات الحديثة ونظافة الشوارع عالم اخر لا يمكن عدم شد الانتباه له وأنطلق الجميع الى حيث إقامة والدته باحد وسائل النقل المعروفة في ذاكرته السابقة بإسم الأتوبيس ولكنها حسب ثقافة البلد تدعي الباص ووجد شادي في الأتوبيس اشكال غريبة الملامح ما بين الأبيض والأسود وضيق العيون ومتسع العيون ويرتدون ملابس غريبة الشكل ايضا لم تألفها عيناه ما عدا نوع ملابس شاهده في التلفزيون في الأفلام الهندية التي كانت تذاع في الأعياد على اجهزة التلفزيون وكان يتابعها الكبار والصغار على حد سواء وضحك شادي في نفسه وهو يقول واخيرا شاهجنا الهنود لحما ودما وانتبه والده الجالس بجواراة لإبتسامته وقال لشادي حمد الله على السلامة

اتضحك على الهنود اول مره تشوفهم بعيد عن التلفزيون وكأن سنوات غربة الوالد عن شادي لم تجعله بعيدا عن معرفة ما يدور بحديث نفسه فقد كان رغم بعده حكيما بالامور وقريبا من أبنه البكر الذى ذرع فيه الرجولة وتركه يتحمل المسؤولية منذ سن السادسة من العمر عندما قرر السفر لتحسين أوضاعهم الاجتماعية وصل الباص الى محطة النهائية ونزل الركاب وتوجه الوالد واصدقانه مع شادي الى أحدي البنايات الجميلة ودخلوا غرفه كان فيها بعض اشخاص من أهل القرية يعرفهم شادي جيدا فهم من الأقارب والجيران ويقومون بأعمال الطبخ أكراما لأبن الرجل الذى يرجع له فى كباير الأمور وصغارها وتبادل معهم شادي الأحضان وتناولوا وجبة الطعام بخبز غريب الشكل وطعم مختلف بين جدران حوائط مختلفة عن كل الجدران التى شاهدها فى حياته واهتز قلبه عندما شاهدها فقد شعر بآن تلك الجدران سيكون له معها حكايات وحوارات وستبدله لحظات ميلاد جديدة.

جلس شادي واقاربة وجيرانه يتناولون الطعام ويتسامرون ويجيب على أسالة هذا وذلك واطمن الجميع على أهاليهم وانصرف المودعين وبقي شادي برفقة والده يتحدثون ويتحدثون وطلب شادي من والده ان يعود لمصر فقد أدي رسالته واصبح شادي بديلا له فى الغربه وفى الصباح انهى شادي اجراءات الأوراق الرسمية التى تسمح له فى البقاء فى الدولة بصورة مشروعه وتقابل مع الكفيل الذى سيكون مسؤولا عن العمل وتوسم فيه خيرا فقد اكتسب احترامه من قبل فى نفس شادي لما سمعه عنه ومن معاملته الطيبة لوالدة التى استمرت أعوام كثيرة وبدأت حياة شادي الجديد مقتترنة بمشاعر الأنهار بالعالم الجديد الذى يعيشه وامسك جهاز هاتف متحرك للمرة الأولى فى حياته واجتهد فى العمل ولروحة الجميلة

المقترنة بثقافة الرجولة التي نشأ وترعرع بها وقدرته على التعامل مع المحيط الاجتماعي أستطاع ان يثبت وجوده بسهولة واكتسب محبة الجميع رغم معاناته الشديدة فى التعامل مع بعض الثقافات الأخرى غير العربية لكنه كان لديه القدرة على الأحتواء وبمرور الأيام كان له جهاز كمبيوتر خاص به استطاع من خلاله الولوج لشبكات الأنترنت واستطاع ان يجعل من أوقات فراغة وسيلة تسلية وفائدة بالتعرف على ثقافات الآخرين وتعلم من هذا وذاك واصبح متميزا فى كل ساحة تواصل اجتماعي ويأخذ بعقول المتابعين واكتشف فى نفسه مواهب لم يكن ليدركها فى وسطه الاجتماعي فى مسقط رأسه وبعد مرور شهور ورده خبر قدوم وليده الأول ففرح كثيرا وحمد ربه وقرر النزول لرؤيته لكن كان للغربة حديث اخر فقد كانت التزامات العمل تفرض عليه عدم العوده كما يشتهي وانغمس فى حياته الجديده بشخصها واحداثها واصبح ملازما للغرفة التى كانت بالامس اول محطات حياته وكان ينزل اجازات بعد ذلك عابره ليشعر بالغربة فى وسط اهله ومسقط راسه حيث اصبحت غربته الفعلية هى عدم الشعور بالاماكن او الشخص و المشاعر الانسانية كانت لديه فقط على الوراق بين حوائط تشتكى من تواجده بين حواياها فقد تغيرت حتى الوان الصباغة والدهان فى المنطقة التى يجلس فيها وتمر الأيام وتتعاقب الى ان يتم صدور القرار بانهاء خدماته فى البلد المضيف ليعود الى مسقط راسه ليبدأ حياه من جديد فلت منه زمامها منذ زمن طويل فها هو شادي يري نفسه بين سندان الغربه ومطرقة الواقع وكلما ازاد به الحنين الى عالم رسمه فى خياله استرجع البوم الذكريات وكلما هم بمحاوله تغيير وجد انه ما زال كالطفل الرضيع الذى يتلعثم فى الكلام وبدأت تعلق قسما وجهه وتفصيله ملامح الزمن واصبح يفارق اصدقائه واحدا تلو الآخر ولم يبق له سوى صديق وحيد كان يزوره ويتبادل معه الحوارات من

جيرانه واصبحت كل ايام شادي انتظارا لعودة ابنة من اماكن سكنهم وحياتهم الجديدة فى زيارات اسبوعية يحاول من خلالها استرجاع بعض اللحظات واختلاصها من زمن ذهب بلا رجعه وبقيّة الاسبوع يناكف فى ام محمد وتناكفة وما بين الشد والسحب والحكمة تستمر الحياة مع نظرات حزينة حائرة ودموع لا يراها الا ام محمد دون التجرؤ عن سؤال سببها فهى تعلم جيدا انه عاش غريبا عنها بمشاعرة فى السفر وعاش غريبا عند رجوعه اليها وربما هى دوامه عاشها ويعيشها غيره الكثيرين

مروج خضراء وحديقة حافلة بأشجار الثمار الطيبة ليمون وجوافه وبرتقال وعنب وتين ومنزل ريفي بالطوب المسلح عليه شعارات الحج المعروفة ورسم الطائرة التى تعبر عن رحلة الحج العظيمة الى الديار المقدسة تحيط بمنزل شادي فى مسقط رأسه وبجوار هذا البيت العديد من البيوت لا تختلف كثيراً عنه فى الوصف فقد تشابهت الملابس والأشكال وربما الاختلاف الوحيد فى القلوب وما تحمله من أولويات وأهتمامات

يقف هناك ذلك الكهل العجوز ذا البشرة الحنطية والشعر الأسود المسرطن بالخصلات البيضاء وهو يرتدى الملابس الصعيدية التى يتم تسميتها الجلابية البلدي التى كانت دوماً له رمز على التمسك بالعديد من التقاليد والعادات التى لا يغيرها تعليم جامعي أو ارتداء ارقى الملابس الحديثة والماركات العالمية، ويتسأل هل أنتهى الأمر هنا أم ما زال هناك بقية تستحق المجازفة ؟!

بينما يتسأل هل أنتهى الأمر هنا أم ما زال هناك بقية تستحق المجازفة ؟!

وإذا به يسمع ضجيج أصوات تأتي من بعيد وعويل النساء وصراخهن يعلوا شينا فشيئا فيلتفت يمينا ويسارا للبحث عن مصدر الصوت فيجد الكثير من الأشخاص ترك المعوال الممسك به وتوقفت المحاريت البلدية عن العمل والتقطت الأبقار أنفاسها في لحظة ذهول لسماع أصوات العويل ويتم تحديد مصدر الصوت من احد المنازل القريبه ويتجه الجيران لمعرفة سبب هذا الصوت

وما هي إلا لحظات وقد ارتفع صوت مكبرات الصوت في المساجد في توقيت واحد غير توقيت الأذان (أنتقل الى رحمة الله تعالى فلان بن فلان وستشيع الجنازة في تمام الساعه والعزاء على المقابر) وهنا تم اكتشاف سبب العويل والصراخ وأصابت ذلك الكهل العجوز قشعريرة وأخذ يقلب كفيه غير مستوعب لفكرة أنتقال توائم الروح في حياته التي عاشها بعيداً عنه وما بقي له معه سوى ذكريات الحنين وكانت الدموع تجري على وجنتيه أنهارا وهو يسير باتجاه بيت الجيران يقدم إحدى ساقية وتلتف بالساق الأخرى ..

ووصل الى البيت وهرعت الخلائق الى المنزل وأصطفت الرجال أمام البيت في طوابير عريضه وهم الشباب بتجهيز الحفار الذى يحفر القبور والمغسل الذى يقوم بتغسيل الميت وتتوافد النسوة الى المنزل وهي تطلق صراختها تعبيرا عن مواساة زوجة المتوفي وتمر الدقائق بببطء شديد وتتوافد السيارات التى ستقوم بتوصيل المتوفي والمشيعين الى دار الحق وحانت اللحظة الحاسمة وتم وضع المتوفي فى الكرب (صندوق خشبي يوضع فيه جثمان المتوفي) وتم وضعه فى السيارة الأمامية وأمتلنت بقية السيارات بالمشيعين للجنازة وتولى بعض الشباب مهمة منع النساء من الخروج امام باب

المنزل وسارت السيارات فى مشهد مهيب كان يتقدمه المتوفى وذلك
الكهل صديق العمر ممسكا بهذا الصندوق الخشبي منتحباً ومكولماً
لفراق الصديق ويتنازع داخله مشاعر مختلفة بين الصبر وبين ذلك
السؤال الحائر فى ذهنه هل أنتهى الأمر هنا أم ما زال هناك بقية
تستحق المجازفة

فقد مات فلان بن فلان صديق العمر وبدأ يعود الى الوراء فى
بداية عمره وكأنه أمام شريط سينمائى حاضر بكافة تفاصيله الدقيقة

.....

بينما هو ممسكا بذلك الصندوق الخشبي الذى يحوي رُفات الصديق
السائر فى موكب مهيب حيث يقف له الجالس ويتوقف السائر انتظاراً
لمرور الضيف المغادر وذلك الكهل غارقاً فى شلال المياه المالحة
المنهمرة من عيناة على الفراق حتى تخضبت اللحية وأبتلت الملابس
وفجأة تتوقف السيارة ومن خلفها العشرات من السيارات أمام
المسجد المجاور للمقابر ويتم التوافد على السياره من قبل الشباب
ذوى القدرة الجسمانية والأقارب ويحملونه الى المسجد ليصطف
الإمام ومن خلفه المصلين الراغبين فى إغتنام الأجر فى صلاة لا
ركوع لها ولا سجود واربع تكبيرات دعوات للراحل ودعوات للحياء
والصلوات الإبراهيمية والتشهد والسلام ما ايسرها من صلاة وما
اكثر اللاهين عنها حديث حال الإمام الذى لاحظ ان الكثير من
المشيعين اصطف فى الخارج ولم يدخل باب المسجد أنهت الصلاة
وتم حمل الصندوق الخشبي سيراً على الأقدام حتى توقف امام حفرة
من الحفر وهناك من ينتظر بداخلها لتحرير المتوفى من دنس الدنيا
الى حياة برزخيه قد تطول أو تقصر لكن اليقين انها قد تكون طريق
للجنة أو طريق للنار بعد سؤال الملكين من ربك وما دينك وما أسم
النبي الذى بعث فيكم أجوبتها سهلة ربما لكن لن تكون سهله على

اللاهين البعيدين عن الدرب القويم وفى زاوية الحفرة يقف الصديق مستقبلاً رفيق العمر فقد كان معه فى البدايات وها هو فى آخر النهايات وبداية البدايات ايضا ويتم وضع الجسد ويتم شق الكفن واللحد ويخرج (الحفار والصديق والأبن الأكبر للمتوفى من تلك الحفرة) ويبدأ الحفار فى أغلاق باب الحفرة بمهنية وحرفية ممتازة توارثها عن الآباء والأجداد حتى لا يكون هناك متنفساً يلج من خلاله الدواب او الهوام او الحيوانات وكذلك رائحة التحلل وعند آخر طوبه يصدح بصوت عال (وحدوده - الفاتحة لمن سبق)

تنهمر الدموع بالعيون وتلهج الأنفس بسورة الفاتحة ونطق شهادة التوحيد فى لحظة صمت وكأن على الرؤوس الطير وينتهى المشيعين من القراءة ويتم اصطفاف الأقارب فى طابور لإستقبال المشيعين ويمسك الأبن الأكبر ذلك الكهل ويقول هيا يا عماء قف معنا فقد كنت معه فى حياته وكان يقول فلان بن فلان هو الصديق والرفيق كونوا بالقرب منه ووقف معهم فى ذلك الطابور وهو يبكي ويتلقى التعازي (البقاء لله - شد حيلك - سبحان من له الدوام - البقية فى حياتك رغم انه لا بقية فقد استوفاه صاحبها) وانتهى المعزين وعاد الكهل العجوز الى الحفرة التى حوت الصديق ورفيق العمر مرة أخرى

جلس الكهل بجوار قبر الصديق والدموع تنهمر وهو يللم نرات التراب والحصى على فوهة القبر ويبكي بكاء شديداً ويقول يا رفيق العمر أنت الآن يتم سؤالك من ناكِر وتكير من ربك وما دينك وما اسم الرسول الذى بُعث فيكم قل يا صديقى. ربي الله ودينى الإسلام ورسولى محمد صل الله عليه وسلم ولا تجزع فكم مشينا سويا فى غسق الليل و الى المساجد وكم صلينا وكم ساعدنا الفقراء

فى حياتنا وإن كانت أخطائنا كثيرة فربنا عفور رحيم ووعدنا بالجنة
إن نطقنا لا اله الا الله خالصة من قلوبنا وما أشركنا أحداً فى عبوديته

يا صديقي إني أدعوا لك بالثبات لقد سبقتنى وإني بك لاحق
وهذا ديدن الحياة فالبقاء للواحد القهار وسأدعوا لك فى صلاتي ليل
نهار إن شاء الله ولا تجزع على أهلك وفقدانهم سأكون لهم السند
والعضد فقد كنت لى سند وعضد.

وبينما هو غارق فى تلك الكلمات إذا بيد تربت على كتفة
فالتفت الكهل ويجد الإبن الأكبر للمتوفي يقول هيا عماه لنذهب الى
البيت فلا بد إن هناك أناس تأتى الى الدوار للمجاملة.....

ويقف الكهل متأبطاً يد الأبن الأكبر ويقرآن الفاتحة على روح
المتوفي ويسيران الى البيت وعند وصولهم جلسوا فى الدوار [قاعة
كبيرة فى الأرياف تقام فيها المناسبات السارة والحزينة وهى دوما
يجتمع فيها العائلة] وما هى الا لحظات وقدم المقربين والأحباء
وأعادوا التعزية وبينما هم جالسون بدأت النقاشات الجانبية فى
الأمر الحياتية (الأسعار نار - السياسة تعبانة - فلان اشترى وفلان
باع) الخ

وكأنهم منذ لحظات لم يكونوا فى المقابر ولم يودعوا راحل
والأبن والקהل مضطرون الى التفاعل معهم حتى لا يشعرونها بأنهم
متجاوزين فى حقوقهم وبدخلهم نيران تغلي كنيران المراحل.....
وتمر الساعات وهذا يغدوا وهذا يروح ويتكرر سيناريو القادمين
وسيتكرر لثلاثة ايام متتاليه حسب عادات الأرياف والقري والنسوة
ايضا تتوافد الى المنزل الذى اعلن حالة الطواري ما بين تجهيز

للقهوة والشاي للرجال والطعام وكذلك للنساء واصبح المأتم وكأنه كافتيريا واستراحة يهرع اليها الجميع تحت ستار المجاملات....
أستمر الحال لمدة ثلاثة ايام متتاليه بنفس الأحداث والكهل في استقبال الوافدين وبداخلة افكار وذكريات للراحل تجعله يتقطع إرباً إرباً عندما يري الشخص لا هية بامور الدنيا وقصصها التي لا تنتهي دون ذكر للمتوفي ورغم ذلك يحاول ان يتماسك أمام الأبن ليهدئ من روعة وحزنه على فقدان والده وفي ختام اليوم يذهب كلاً الى حال سبيلة ويهمس الإبن في أذن الكهل. عماه لقد تعبت كثيراً طيلة الأيام الماضية منذ وفاة المرحوم هيا لتستريح في منزلك فقد تركتهم وسأمر عليك غداً ان شاء الله لنتناقش في بعض الأمور....

ويؤمي الكهل برأسه بالموافقه ويذهب الى منزله.....

يسير الكهل الى منزله وذهنة شارد فيما جرى ولا يرى ما حولة صحيح العيون مفتوحة ولكنها لا تبصر شيئا ولكون الأقدام اعتادت الطريق فقد انتبة من لحظة الشرود وكان وقتها بجوار حديقة المنزل واتجه صوب الغرفة التي يلقي فيها باحمال جسدة الذي ظهرت عليه ملامح الإرهاق والتعب وقابلته زوجته الحنون التي كانت دوماً تراه منحة السماء لها وتعويضها عن حرمانها من الكثير من النعم فقد كانت من أسرة كبيرة العدد ولم تنل قسطها مثل بقية الأقران في المدن بوجه حائر بين ابتسامة اللقاء أو إظهار التعاطف ومواساة قرين روحها بفقدانه.

وقالت : بصوت يملؤة العطف يا أبو محمد هذه سنة الحياة وجميعنا ذاهب لا محاله فأصبر على أبتلاء فقدان الصديق.

وقال لها : كلنا لها أم محمد وأين نحن ذاهبون جميعنا سنلحق السابقين ولكنها عشرة العمر وتاريخ لا ينسي بسهولة.

سألها عن الأولاد والبنات وكيف حالهم فقالت له جميعهم بخير الحمد لله قاموا بالاتصال بي عبر الهاتف وأخذت تسرد التفاصيل فقد تكلم الابن المقيم في بلاد المهجر والبنات التي تزوجت في مدينة أخرى والولد الآخر في المدينة البعيدة وظلت تحكى وتحكى وهو ينتظر منها أن تنتهي ولكن هيهات فقد كان لسانها حبيسا طيلة ثلاثة أيام عندما كان في بيت الصديق الراحل ، وقال لها هل جميعهم بخير ، قالت له نعم كلهم بخير قال لها الحمد لله يكفي الان فلست في حالة لسماع المزيد من الكلام ، أحضرت لى حقيبتي السوداء في الرف العلوى من الخزانه ، فقالت له حاضر وأحضرت أحد الكراسي لى تقوم بالصعود عليه لإحضار الحقيبة ولاحظ للمرة الأولى أنها تعاني من عوامل الزمن فقد كانت حركتها بطيئة وضاعت الهمة والنشاط في تلبية الطلب بسرعة.

وقال لها ما بك يا أم محمد ؟

قالت له : لا أدري أشعر منذ فترة بأننى لست على ما يرام ولم أبلغك بالامر حتى لا ينشغل فكرك ، فأنا أعلم ما تمر به في الفترة الأخيرة وكأنك ترغب في الأقدام على شئ ما ودائما شارد الذهن!

قال لها : كفاك لو ما يا أم محمد أنتى ما زلتى مثل القمر فى ليلة الرابع عشر فأبتسمت ابتسامة عريضة غير مصدقة لما تسمعة فقد تعود أبو محمد على جفاف اللفظ العاطفي وهى تعودت معه على منهج الحياة المعتاد بينهما.

قالت له أما زلت ترانى قمرأ فى حياتك يا ابو محمد ؟

قال لها جهزى نفسك غدا صباحا للذهاب الى الطبيب لإجراء فحوصات حتى يطمئن قلبك، قالت له كعادتك دوماً تهرب من الكلام

فلننتظر حتى يوم الجمعة فأبنائك وبناتك سيأتون لنا ليلة الخميس لقضاء السهرة ولا أريد أن ينشغل بالهم ، ولدى الكثير من الأعمال فى المطبخ ، قال لها حسناً هيا أحضرى لى الحقيبة وقامت بالصعود على الكرسي واحضرت الحقيبة من الرف العلوى وأعطتها له وقام بفتح الحقيبة ويفتش محتوياتها هذه عقود وهذه شهادات وهذه جوازات سفر وهذا اليوم صور وقام بإخراج الألبوم من الحقيبة وأضطجع على جانبة الأيمن وبدأ فى إستعراض محتواة، وبينما يقلب فى الصور واحده تلو الأخرى وموقف تلو المواقف وإذا بنغزات القلب ونبضاته تتسارع وتتسارع فقد كان حريصا منذ بداية مرحله الطفولة على توثيق لحظاته فى كل حالاتها وإذا بالدموع تنساب على وجنتيه ويشهق شهقة لو سمعتها ذرات الحديد لأنصهرت ولو شاهدتها الجبال لَحَرَّتْ من هول ما يشعر به ولما لا إنها لحظات الحشرجه وخروج الروح فقد حان وقتها وإذا بام محمد تهرع اليه وترى بعينها نهاية رجل كان حائرا وتقوم بتلقينه الشهادة. وبينما يرى ابو محمد ملائكة الرحمة والعذاب يتذكر انه لم يجابو على السؤال الحائر الذى كان يعانقه من لحظة الطفولة حتى لحظة الفراق الى متى !؟

وتنطلق الروح لبارئها لها ما لها وعليها ما عليها وتبقي الدوامه أسلوب حياة وقصة لن تنتهي.....ربما تجد من يكملها يوما بعد الرحيل